مركز الثقل من القيادات التقليدية الى قيادات جديدة، معظمها من أصول اجتماعية مختلفة، هو: هل تعني هذه التغيّرات تجاوز النضال الفلسطيني، في المرحلة الراهنة، لطابعه، كحركة تحرر وطني، ليصبح أقرب الى الثورة الاجتماعية ؟ والمعروف ان هذه القضية كانت مطروحة على الساحة الفلسطينية منذ منتصف الستينات كقضية خلافية، وخاصة بين «فتح»، من ناحية، والجبهتين، الشعبية والديمقراطية، من ناحية أخرى[٣٤]. فقد انطلقت «فتح» من ان الطبيعة الاستيطانية للاستعمار الصهيوني وحّدت الشعب الفلسطيني في مواجهته، وجعلت الهدف الاول هو تحقيق الاستقلال الوطني، بما يعنيه ذلك من عدم جواز اثارة المسألة الاجتماعية قبل تحقيق هذا الهدف. فالشعب الفلسطيني، في مجموعه ـ من وجهة نظر «فتح» ـ متضرر من الاحتلال ويفتقر، في تشتته، الى المقوّمات الاساسية لأية ثورة اجتماعية. كما ان صراعه مع العدو هو صراع وجود وبقاء لا صراعاً على مبدأ اجتماعي بعينه. وفي مثل هذا الصراع تختفي المعارك الاجتماعية ويلتحم الشعب كله في جبهة عريضة ضد دولة الاحتلال، وخاصة في ظل غياب التناقضات الاجتماعية الحادة بين فئات الشعب الفلسطيني التي تجمعها مصلحة موحّدة في مواجهة الاحتلال الذي يضرّ بها جميعاً. لكن تركيز «فتح» على أولوية التحرر الوطني لم يحل دون اقرارها بالعلاقة المصلحية التي تربط اسرائيل بالامبريالية العالمية وبالقوى العربية التي ترتبط مصالحها بها. ومع ذلك، فقد ظلّت حريصة على التمييز بين التناقض الرئيس والثانوي، وعلى عدم توسيع معسكر الخصم، كلما كان ذلك ممكناً، بما يخدم مصلحة الثورة.

وبهذا التصوّر، تمكّنت «فتح» من التواجد بين كل فئات الشعب الفلسطيني دون استثناء.

لكن في مواجهة هذا التصور، برزت اتجاهات يسارية تقوم على رفض الفصل بين النضال التحرري الوطني والنضال الاجتماعي؛ فأكدت الجبهتان، الشعبية والديمقراطية، على ضرورة ان تواكب الثورة الاجتماعية الثورة الوطنية، وعلى أهمية ان تتولّى الطبقات الثورية (العمال والفلاحون بالاساس) قيادة مرحلة التحرر الوطني، وذلك انطلاقاً من تصوّر مؤداه ان النضال الوطني مسألة صراع طبقي. لكنهما لم تنفيا أهمية دور بقية الفئات الاجتماعية في الثورة، ولم ترفضا صيغة التحالف او التنسيق في اطار جبهة عريضة معادية للاحتلال، تقوم على برنامج سياسي، لا على اتفاق عسكري.

لكن الملاحظ ان التصور الاول، الذي تبنّته «فتح»، ظل هو السائد في العمل الفلسطيني، حيث تبنّاه الميثاق الوطني الفلسطيني العام ١٩٦٨، في مادته الثامنة: «ان المرحلة التي يعيشها الشعب الفلسطيني هي مرحلة الكفاح الوطني لتحرير فلسطين. ولذلك، فان التناقضات بين القوى الوطنية الفلسطينية هي من نوع التناقضات الثانوية التي يجب ان تتوقف لصالح التناقض الاساسي فيما بين الصهيونية والاستعمار، من جهة، وبين الشعب العربي الفلسطيني، من جهة أخرى. وعلى هذا الاساس، فان الجماهير الفلسطينية، سواء من كان منها في أرض الوطن أم في المهاجر، تشكل، منظمات وافراداً، جبهة وطنية واحدة تعمل لاسترداد فلسطين وتحريرها بالكفاح المسلّح»[٣٥].

وقد ظل هذا النهج هو المرشد للنضال الفلسطيني طوال السنوات العشرين الماضية؛ وبقي موجهاً للانتفاضة، أيضاً، على الرغم ممّا أدت اليه التغيّرات الاجتماعية في الاراضي المحتلة من انهاء دور القيادة التقليدية القديمة. فالواضح من العرض السابق ان القيادة الجديدة الصاعدة تحرص على عدم معاداة الزعامات القديمة، بل وتتيح لها فرصاً للتفاعل مع الاوضاع المتغيرة، بل ولم يفتها الحفاظ لها على نوع من الوجاهة، لكن الفخرية لا الفعلية. وهذا ما يفسر، أيضاً، محدودية العنف